الفصل العاشر

محنة الصابئة المندائية

obeikandl.com

obeikandl.com

الشيخ ستار جبار
رئيس طائفة الصابئة المندائيين

يعيش الشيخ ستار جبار اليوم في سورية، حيث يرعى شؤون الطائفة. ويذكر أن غالبية أبناء الطائفة انتقلوا إلى سورية، وهم يمتلكون جمعية ترعى شؤونهم.

أجرى الباحث موسى الخميسي لقاء مهماً مع رئيس الصابئة المندائية وزعيمها العالمي، الشيخ ستار جبار، وعنها نقتطف بعض مايقوله الشيخ.

الشيخ المندائي ستار جبار الرئيس الروحي للطائفة المندائية في العراق يمتلك خوفاً كبيراً على من تبقى من أبناء المندائية، بعد أن تشتت وتشرد المئات من العوائل إلى دول الجوار في سوريا والأردن وإقليم كردستان ودول أوربا وأمريكا وكندا وأستراليا . يناشد الجميع بمراجعة للنفس على أن تكون أمينة وصريحة، بلا تزييف أو تزويق، بلا غرور أو ادعاء، فلم يعد العراق هذا اليوم كدولة ومؤسسات وأحزاب ورجال دين ومرجعيات وهيئات إسلامية، ليمتلك ترف الاستخفاف والاستهتار تجاه عملية قلع جذور طائفته نهائياً من أرضها العراقية.

السمة الأكثر سلبية والمرض المدمر حقاً إنما هو تردي الأوضاع بداخل العراق التي تحولت إلى استبداد الأخ الكبير وطغيانه ضد الأخ الصغير الذي يمثل أقليات مسالمة لاحول لها ولا قوة، فالطائفية هذا اليوم من وجهة نظر هذا الرجل هي النقطة السوداء والشوهاء، وهي منبع كل السلبيات والشوائب التي تتوغل يوماً بعد آخر في الجسد العراقي المنهك.

التهجير القسري للمندائيين لم يعد حوادث متفرقة، بل أمسى حالة منتشرة في عموم مدن العراق.

تهدّمت كل صيغ التعايش التي عشناها

على ضوء انعدام فكرة المواطنية التي تشكل قاعدة الديمقراطية وتضمن احترام الأقليات ومساواة الجميع أمام القانون، وعلى ضوء استفحال قسم من الشقيق

الآخر الذي تلبس النزعة العدائية والهيمنة والغطرسة تجاه إخوة الأمس من أبناء الأقليات العراقية، وعلى ضوء ممارسة الإرهاب بكل أصنافه وأنواعه، اعتداءات على العرض واغتصاب النساء ومصادرة الأملاك والأموال والاستيلاء على البيوت، واغتيال الأبناء والآباء في محلات عملهم، وإرغام العديد من العوائل على تغيير عقيدتها الدينية بقوة السلاح والابتزاز الرخيص اللاأخلاقي، فقد خلق هذا الوضع المتوحش اللاإنساني حركة تعبئة عند أغلب العوائل المندائية والمسيحية من أجل الخلاص بأرواحهم بعد أن تهدمت كل صيغ التعايش التي عشناها، ولم تكن لدينا كمؤسسات دينية ومدنية أية امكانية مادية أو قتالية لوقف إراقة الدماء، فكاد ان يتبدد حلمنا كأقلية دينية مسالمة بأن ينهض العراق من وسط الركام ليعيد بناء نفسه على أسس جديدة مدنية وحضارية، الكل، طوائف متناحرة وقوات احتلال عملوا على تحويل عراقنا إلى حرائق وأنقاض. لقد نزح أغلب العوائل وهي تساعد بعضها البعض هروباً من العنف الأعمى والفاحش.

أبناؤنا يذبحون بالسكاكين

لقد كان رهاننا أن نرى حقاً من يمد يده لتوسيع رقعة التعايش والتبادل بين الإخوة، وأن يقدم المساعدة والعون ويدافع عن وجودنا ويوقف آلات تدميرنا وإبادتنا وإبعادنا عن وطننا. لقد تفاجأنا باستدارة الوجوه عن محنتنا للحد الذي وجدنا أنفسنا عزلاً بكل ما للكلمة من معنى فقط مع إيمان قلوبنا، ولم نتخل عن الأمل حتى اللحظات الأخيرة ونحن نرى ابناءنا يذبحون بالسكاكين. فالعديد من عوائلنا المتبقية في داخل العراق تعيش الفاقة والبؤس، وعوائل كثيرة في كل من الأردن وسوريا استنفذت كل مداخيرها وتعيش متعففة على صدقات ومساعدات إخوتهم من المسيحيين والمندائيين والمسلمين. لقد فتحت لنا حكومة إقليم كردستان أبواب التعاطف فقط مع محنتنا، أما المؤسسات الحكومية والهيئات الدولية المختصة فلم تمد يدها لمساعدة أحد. ما نحتاجه الآن هو دعم عوائلنا مادياً والاعتراف بحقيقة المصير المظلم الذي ينتظرنا، والإحساس بالمسؤولية، وإجراء الحوار والمداولة، من

أجل بناء ما تحتاج إليه ثقافة السلام من خلق الفضاءات والتوسطات والقيم المشتركة.

نعيش تجربة اقتلاع بالمعنى الفيزيقي والروحي

إقليم كردستان غير مستعد لاستقبالنا، والحكومتان السورية والأردنية تبذلان كل ما في وسعهما لمساعدة اللاجئين العراقين بدون تفريق، ونحن كعوائل مهجرة نحتاج أكثر مما يرسمه التضامن والتعاطف الأخوي بعيداً عن اللعب السياسية والبرلمانية، بل في استخدام ما توفره الدولة العراقية للآخرين، نحن نعاني الفوضى وعدم الانضباط من العديد من المؤسسات الحكومية العراقية التي أدارت بوجهها عن محنتنا. لنا حضور وأنا أشدد على جوانبه الإنسانية وليس السياسية. إننا نعيش مفارقات بعضها يقف على حق والآخر على باطل، يجب النظر إلى محنتنا بأننا نعيش تجربة اقتلاع بالمعنى الفيزيقي والروحي، عن التربة الأصيلة التي شهدت ميلادنا منذ آلاف السنين. بصراحة لم نوفق للآن بالحصول إلا على وعود. والقسوة تزداد يوماً بعد آخر.

يراد لهم الإبادة

ثمة وضع محرج وصلت إليه حال الأقليات الدينية العراقية وخاصة طائفتنا التي لايوجد لها أحد يساندها ويدعمها في الخارج، كما هو الحال مع إخوتنا المسيحيين أو إخوتنا المسلمين. وفي يقيني فإن الأمر يتمحور حول الضمير الإنساني، فنحن ومنذ منتصف عام ٢٠٠٥ نلاحظ عمق الهوة بين محنتنا وتوجهات الإعلام في داخل الوطن والإعلام العربي، ونتساءل ما الذي حدث لكي لاتعمل ماكنة الإعلام المأمولة بنزاهتها ودفاعها عن الإنسان وحقوقه المشروعة بالعيش، بأن تمتلك مثل هذا الصمت واللا مبالاة عن أبناء هذه الأقلية الدينية التي يراد لهم الإبادة.

لم تخرج أي فتوى تحرم قتل أبنائنا

لقد عانينا على مر التاريخ من الفتاوى الدينية، وراح منا آلاف الأبرياء. لقد حققنا زيارات للمرجعيات الدينية وعلى رأسها السيد علي السيستاني والراحل الشهيد محمد باقر الحكيم، كما التقينا بهيئة علماء المسلمين والسيد مقتدى الصدر، وعدد من قادة الأحزاب الدينية والسياسية في البلاد، والكل كان متجاوباً مع محنتنا، ولكن لحدّ الآن لم تخرج أي فتوى تحرم قتل أبنائنا والاعتداء على أعراضنا ونهب ممتلكاتنا والاستيلاء على بيوتنا، وإجبار ناسنا على تغيير عقيدتهم الدينية، والقيام بعمليات ختان لأبنائنا قسراً. ليس من الصعب أن يلاحظ المرء إلى أي مدى أصبحت حالنا مزرية والتي نستجدي من الآخرين فقط الأمان والسلام المفقودين.

الحكومة والاحتلال لا يتجاوبان معنا

كل اللقاءات التي تمت مع سلطات الاحتلال ورئاسة الحكومة العراقية والمسؤولين، كانت نتيجتها عدم التجاوب الفعلي لحمايتنا والحد من العنف المسلط على رقابنا والعمل على احترام معتقداتنا الدينية وضمان سلامتنا في وطننا، في الوقت الذي أكدنا ولا نزال على التزامنا بتكريس أنفسنا لمواصلة السعي المشترك من أجل وحدة العراق وشعبه، والسعي من أجل إيجاد مناخ يوفر العيش سوية للأجيال الحاضرة والمستقبلية، في ظل الثقة والاحترام المتبادلين. أصبحت لنا عادة الاستماع إلى الوعود.

حملة ختان الذكور عنوة

القتل على الهوية، التهجير القسري، الاختطافات، الاغتيالات، الاعتداء على أعراض النساء، حملة ختان الذكور عنوة، وغيرها من الأساليب اللاإنسانية. ندعو كل السياسيين ورجال الدين المسلمين في العراق إلى العمل من أجل انتقال عادل وآمن نحو الديمقراطية مستلهمين في ذلك المعاني السامية لكلمات الرسل والأنبياء.

لنعيش سوية في أسرة واحدة

إن أرض العراق مقدسة في كل الكتب السماوية، ولهذا فإن على أتباع الديانات السماوية احترام قدسية هذه الأرض التي لايجوز أن يسفك الدم على أديمها الطاهر. كلنا أمل بالعيش من جديد سوية كعائلة واحدة، تنظر بعين الاحترام والإجلال لكل القيم الأخلاقية والدينية الموروثة لكل فرد فيها، وندعو الجميع إلى إدانة ونبذ ثقافة التحريض والكراهية وتشويه صورة الآخر الضعيف.

في العراق سبعة رجال دين مندائي

كان عدد المندائيين قبل أحداث عام ٢٠٠٣ ما بين ٣٥ إلى ٤٠ الف مندائي. الآن ما تبقى في العراق لايتجاوز الخمسة آلاف مندائي. كان عدد رجال الدين الذين يقودون الشعائر والطقوس ويحتلون مناصب كهنوتية عليا ٢٩ كهنوتياً، أما الآن فعددهم ستة فقط. وكان عدد مساعديهم ٣١ أما الآن فتقلص هذا العدد إلى سبعة.

أغتصاب وختان .! إنه موت.!

المرأة التي يتم اغتصابها أو الرجل أو الصبي الذي يجري ختانه بالقوة من قبل بعض أفراد الملشيات المتطرفة.

مثل هذه الحقائق تبدو بعيدة التصديق في عصر التغيرات والتبدلات والديمقراطية وحرية الإنسان وحقوقه المشروعة في العيش وممارسة عقيدته وأفكاره، فنحن نعيش في القلق والتعثر، إذ لايمكن أن تقتل إنساناً وتغتصبه لأنه لا ينتمي إلى دينك، لقد اعتدوا على اعراضنا في داخل الأسرة وفي البيوت وأماكن العمل والدراسة، ونحن نشعر بالحياء من هكذا أفعال خسيسة ودنيئة. إنه موت وعار يشق السماء، فلا العقل ولا الوجدان ولا الضمير الإنساني، لايستطيع أن يبرر أو يعقلن هذه الدناءة. نحاول مساعدة من اغتصب بكل التقاليد الإنسانية والأخلاقية الرفيعة التي يأمرنا ديننا المتسامح على اعتبار أن من أصابه السوء، هو ضحية تحتاج الوقوف إلى جنبها لإعانتها على الوقوف لمواصلة مسيرة الحياة.

نفقد القدرة على إمكانية تحقيق التعاون

أشعر بمسؤولية تاريخة كبيرة في هذا الظرف العصيب، فأنا لست خارج العراق بشكل دائم، إذ يحتم عليّ واجبي الديني التنقل، لذا تراني أتنقل من مكان إلى آخر من أجل إطلاع المؤسسات العربية والعالمية على أوضاع أبناء طائفتي بعد أن فقدنا القدرة على مصداقية الادعاءات، لكننا لم نفقد القدرة للآن على الشعور بانتمائنا الوطني وإمكانية تحقيق التعاون.

نتمنى أن تترجم الآيات القرآنية الكريمة التي تذكرنا إلى واقع عادل في التعامل معنا

كنا ولا نزال نتمنّى أنفسنا بأن تترجم هذه الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت بالقرآن الكريم إلى واقع عادل في التعامل معنا على أساس أننا نؤمن بالله واليوم الآخر ونؤمن بالحساب والعقاب، وأن الابرار منا يذهبون بعد الوفاة إلى عالم النور وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام، ونحن ننزه الله سبحانه وتعالى غاية التنزيه. إن الدين الصابئي دين قديم يعتقد معتنقوه أنه من أقدم الأديان إن لم يكن أقدمها، فنحن ننسب كتابنا المقدس **"كنزه ربه"** الكنز العظيم إلى آدم عليه السلام.

الإبادات التي تعرّض لها المندائيون

تعرض المندائيون طيلة تاريخهم الذي يمتد آلاف السنين إلى العديد من جرائم الإبادة الجماعية وموجات من القتل والاضطهاد والقهر والإجبار على تغيير دينهم وكان تكفير المندائيين هي الذريعة المستخدمة لابادة الشعب المندائي، وقد استخدمت هذه الذريعة من قبل جميع الأديان المجاورة لهم عبر التاريخ. وقد يكون الشعب المندائي هو الشعب الوحيد في التاريخ الذي تعرض ولا يزال إلى هذا العدد من المذابح دون أن يرفع أحد صوته.

مذابح المندائيين في القرن الأول الميلادي

ورد في كتاب حران كويتا ، وهو كتاب تاريخي مندائي نص في كتاب يؤرخ حادثة واحدة على الأقل حدثت في القرن الأول الميلادي وهي قيام اليهود بإبادة جماعية للمندائيين في أورشليم(موطن المندائيين) حيث قتل في هذه الحادثة كما روي في هذا الكتاب آلاف المندائيين وكان بينهم(ثلاثمائة وستون رجل دين مرة واحدة) لأنهم مندائيون مما أدى إلى هجرتهم إلى خارج المنطقه وهذا هو النزوح الأول للمندائيين خارج وطنهم . ويعلم جميع المندائيين المذابح التي تعرضوا لها على أيدي اليهود في التاريخ القديم و في بداية الدعوة المسيحية والتي أشارت إليها كتبنا الدينيه والتي توقف بعدها التبشير بديننا بسبب هذه المذابح، ولا أريد الإسهاب في هذا الموضوع لأنه معروف للجميع.

مذبحه سنه ٢٧٣ م في إيران

حين جاء الملك الساساني بهرام إلى السلطة سنة ٢٧٣(م) . قام بحمله اضطهاد شعواء قادها الحبر الأعظم للزرادشت (كاردير) ضد المندائيين، إلا أنه لم يستطع القضاء تماماً على المندائية، ولكن التدوين توقف تماماً لعدة قرون ولم نشاهد التأثيرات والكتابات المندائية إلا فيما يسمى بأوعية (قحوف) الأحراز والأشرطة الرصاصية . وقد أجبرت جموع المندائيين، فيما بعد، على الدخول إلى الإسلام، لأن الدخول إلى الاسلام لم يكن هناك بد عنه، فقد قضت المصلحة الفردية و حب التخلص من تأدية الجزية وما فيها من إذلال والتهرب من الأذى والرغبة في المناصب والتمتع بالحرية والأمان من الإجبار على دخول الاسلام.

مذبحة مدينة العمارة جنوب العراق (القرن الرابع عشر)

حدثت مذبحه للشعب المندائي في القرن الرابع عشر في مدينة العمارة وهي موثقة في كتاب (الليدي دراور) بعنوان(الصابئة المندائيين) ترجمة المرحومين غضبان رومي و نعيم بدوي(رواه نهويلخون) صفحات ٥٦ و ٥٧ جاء فيهما :

ومهما كان الامر فإن الصابئين في القرون الوسطى يظهرون وقد قهرهم الاضطهاد فقد تركت إحدى الكوارث في القرن الرابع عشر طابعها في ذكرياتهم حتى هذه الأيام وقد عثرت على تسجيل لهذه المذبحة في نهاية أحد الأحراز الطلسميه التي تفحصتها أخيراً، كما وجدت نفس الشيء مسجلاً في (التاريخ) وهو مخطوط يمتلكه الشيخ دخيل يحكي المخطوط عن مذبحة رهيبة تعرض لها الصابئون في الجزيرة حين كان السلطان محسن بن مهدي حاكماً على العمارة وكان ابنه فياض حاكماً على شوشتر حيث تعرض بعض الأعراب لامرأة صابئية و نشب القتال وأعلنت الحرب على الصابئيين فذبح الكهان والرجال والنساء والأطفال وبقيت الطائفة مهيضة وبلا كهان لعدة سنين.

مذبحه سنه ١٧٨٢ في الجنوب الفارسي

ورد ذكر هذه المذبحة في مجلدات جان دو مرجان، الجزء الخامس: Jean de Morgan (mission scientifique en Perse) voume 5 وعنها ننقل هذا النص:

المسلمون في بلاد فارس أرادوا الحصول على الكتب الدينيه للمندائيين ولكنهم لم ينجحوا بالحصول عليها لا عن طريق الشراء ولا عن طريق الاحتجاز. لذلك قاموا باعتقال قادتهم وقالوا لهم إنهم يتبعون الديانة المندائية عن طريق التقليد عند القيام بالطقوس المندائية الدينية خوفاً على كتبهم، عند ذاك تم رمي قادتهم الدينيين في السجن وتحت التعذيب، ولكنهم استمروا في إنكار وجود أي كتاب مندائي لديهم ولكن المسلمين الفرس هددوا الكثير من قادة المندائيين بالقتل، البعض خوزقوا وآخرون مزقوا، أحد المعذبين المندائيين تم قطع أطرافه الواحد بعد الآخر بدأ من أصابع الأرجل ثم الأيدي، بعض قادتهم تم جلدهم أحياء والآخرون تم إحراق أعينهم بوضع حديدة حامية جداً في أعينهم، ثم بعد ذلك تم ذبحهم، والبعض الآخر تم إحراقهم أحياء .

الكنزبرا (آدم) الذي تم قطع يده اليمنى من قبل المسلمين الفرس كان واحداً من هؤلاء المساجين هرب إلى تركيا (من المحتمل المقصود شمال العراق في العصر

العثماني) ولكن قبل هربه أخذ معه نسخة من الانياني (الكتاب الرئيسي للمراسيم الدينيه المندائية) تم استنساخه من قبله رغم أن يده اليمنى كانت مقطوعه وهذا (الكتاب الانياني هو المصدر الوحيد الذي اعتمد عليه في منطقة العمارة) وفي نفس الوقت فإن آدم هذا هو نفسه علم المندائية إلى شخص إنكليزي اسمه (j.e.taylor) والذي كان نائب القنصل في البصره واستمر تعليمه لمدة ١٢ سنة (يبدو ان تيلر هذا كان بطيئاً جداً في التعلم).

مذبحة سنه ١٨٧٠ في مدينة شوشتر

وقد ذكرت في موقع أوروبي على الشبكة العالمية. وهو: http://leocaesius.blogspot.com

شوشتر هي مدينة إيرانية تبعد عن مدينة الشوش الحالية أقل من عشرة كيلو مترات وهي سابقاً مدينة مندائية بالكامل يقدر عدد نفوسها حين ذاك(٢٠ ألف مندائي) وتقع شمال الأحواز في جنوب إيران سنة ١٨٧٠ م تم ابادة اغلب المندائيين فيها على يد الحاكم الإيراني آنذاك ناصر الدين شاه الذي حكم إيران من سنة ١٨٣١ إلى ١٨٩٦م مع العلم أن العائلة الصابورية، وهي من العوائل المندائية الاصيلة (كانوا يسمون سابقاً العائلة الششترية) هم من مدينة شوشتر هربوا منها إنقاذا لأنفسهم ولعوائلهم. ومن يراجع الزهيرات على متن دراشة يهيى(تعاليم يحيى) وكذلك سدرا نشماثا الموجودة لدى الإخوة المندائيين في إيران سيجد إشارات عديدة إلى هذه المذبحة ومن يزور الشوش حالياً سيجد كتابات مندائية خصوصاً على الجسر القديم للمدينة تشير إلى هذه المذبحة، وهناك كتاب بعنوان قصص من حياة أمير كبير من تأليف محمود حميدي باللغه الفارسية جاء فيه ص١٦١ ما يلي :

((في رسالة من أردشير حاكم خوزستان سنة (١٢٦٦هجرية) قال له فيها إن طائفة الصابئة الذين يعتقدون في ديانة حضرت زكريا في شوشتر يسكنون على ضفاف النهر.... عدد من الأعيان والأشراف هناك قاموا بأيذائهم واضطهادهم وأجبروهم أن يتركوا دينهم بطريقة العنف والإجبار ويدخلون في الإسلام)) .(أرجو من

الأحبة في إيران بتزويدنا بما لديهم حول الموضوع حتى ولو كان ذلك باللغة الفارسية).

إعدام رئيس الطائفة

في زمن الدولة الفارسية تمتع المندائيون تحت حكم الملك أردشير الأخير بحماية الدولة (الامبراطورية) ولكن الأمر تغير حين جاء إلى السلطة الملك الساساني بهرام الأول سنة ٢٧٣ م، إذ قام بإعدام رئيس الطائفة في بداية حكمه بتأثير من الكاهن الزرادشتي (كاردير).

وامتد الاضطهاد الساساني الديني ليشمل أتباع الديانات الأخرى غير الزرادشتية مثل المندائية والمانوية واليهودية والمسيحية والهندوسية والبوذية.

فحملة الاضطهاد الشعواء التي قادها الكاهن الأعظم للزرادشت (كاردير) لم تستطع القضاء تماماً على المندائية، ولكن التدوين توقف تماماً لعدة قرون ولم نشاهد التأثيرات والكتابات المندائية إلا فيما ندر.

كانت الكثرة من أهل المدائن عاصمة الفرس الساسانيين الشتوية من الآراميين والمندائيين وفيها لهم معابد عديدة، وازدادت أعدادهم في الفترة الساسانية خصوصاً شرق دجلة وضفاف الكرخ والكارون فاستوطنوا ديزفول (عاصمة بلاد عيلام)

والأهواز والخفاجية والبسيتين والمحمرة وكان أغلب سكان شوشتر من المندائيين الصابئة، كما أصبحت الطيب (طيب ماثا) أهم حاضرة لهم. وتفوقوا في صناعة الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي كانت تجلب من مملكة آراتا في المرتفعات الإيرانية. أما القسم الأكبر منهم فقد امتهن الفلاحة وزراعة الأرض واستوطنوا الأهوار وضفاف الأنهار وقاموا بتنظيم قنوات الري في أرض السواد، وأسسوا لهم حواضر مهمة، وأغلبهم امتهن صياغة الذهب، وقد أطلق عليهم العرب تسمية أنباط أو (نبت) لكونهم ينبتون الأرض.

مذبحة شوشتر

تعرض المندائيون إلى العديد من حملات التطهير العرقي على مدى التاريخ، شأنهم شأن المانويين وغيرهم من الأقوام الذين انقرضوا من العراق، وآخرها كانت مذبحة شوشتر التي حدثت في القرن التاسع عشر حيث لم يتبق في هذه المدينة المندائية ولا مندائي واحد، ونتيجة لذلك تضاءلت أعداد المندائيين إلى درجة مخيفة وباتوا على شفير الفناء، وقد أحصاهم المستشرق بيترمان في عام ١٨٤٠ فوجد أنهم بحدود الخمسمائة عائلة أو ما يزيد قليلاً في المنتفك والقرنة وغيرها من مناطق الجنوب العراقي.